القديمة كل سنة الاَّ نصف مليون او ثلثا مليون فتكتفي بسك ما يدخل خزينتها وبذلك تبقى اسعار النقود الفضيَّة مقاربة لاسعار الفضة ويبقى التعامل بها رائجًا كالتعامل بالذهب وحبذا لو نظرت الحكومة المصريَّة في ذلك وجرت عليهِ فتبقى قيمة نقودها الفضيَّة معادلة لقيمة فضتها ولا يحاول اهل التجارة سحب الذهب منها

البرنس بسمرك

لا يعرَّف العلمّ ولا سيما اذا اشتهر اشتهار هذا الوزير الخطير الذي قبض على زمام السياسة الاوربيَّة اعوامًا طوالاً . لكن حقيقة الرجل لا تظهر لكل احدٍ ظهورها للناقد البصير . واخلاقهُ لا تستجلى في المقامات الرسميَّة كما تستجلى في بيتهِ بين اهلهِ وذويهِ حيث لا يرى الى التكلف سبيلاً . وقد اطلعنا منذ مدة وجيزة على مقالة بليغة للكاتب سمولي في جريدة المعاصر الانكليزيَّة وصف بها البرنس بسمرك وهو في بيتهِ ادق وصف وقد كان لها وقع عظيم في النوادي الاوربيَّة فرأينا ان نلخصها في ما يلي لان موصوفها حقيق بان تبقى لها اوضح صورة في صفحات المقتطف . قال الكاتب ما محصلهُ

لما وهب الامبراطور ولهلم فردرِكْ وه للبرنس بسمرك لم يخطر لهُ انها تكون واسطة لتقريب الاتصال بين البرنس والشعب الالماني . فان هذه القرية على نحو اربعين دقيقة من مدينة همبرج ولذلك يسهل وصول الوفود اليها من كل انحاء السلطنة الالمانيَّة وهي بمثابة منبر يقف عليهِ البرنس بسمرك ويخاطب منهُ ابناء وطنهِ . والمكان ليس منعزلاً تمام الانعزال ولا فيهِ من العظمة والفخامة ما ينتظر في هبة امبراطور لوزيرهِ هبة سلطنة . والمنزل الذي فيهِ كان سنة ١٨٧١ فندقًا صغيرًا ولكن البرنس وسَّعهُ كثيرًا بعد ذلك ويليهِ غياض واسعة جدًّا تبلغ مساحتها ثلاثين الف فدان مكسوة بالاشجار الغياء . وهذه هي الهبة حقيقة ولها في عيني البرنس بسمرك ارفع مقام ولا سيما لانهُ من المغرمين بجمال الطبيعة وما فيها من السهول والغياض

ولما وصلنا الى باب المنزل استقبلنا الدكتور كريسندر كاتب البرنس بسمرك ورحَّب بنا وكان البرنس قد دعانا الى الغداء معهُ ولكنَّ القطار تأخر بنا قليلاً عن

ميعاد الغداء فوجدنا عائلة البرنس في غرفة المائدة فادخلونا اليها رأساً . فلما دخلناها نهض البرنس وزوجتهُ واستقبلانا وكانت زوجتهُ اقرب الى الباب فحيتناها اولاً والعوائد الالمانيَّة تقضي علينا بان نبدأ بتحيَّة رب المنزل ولكنَّ الالمان سمحون مع الاجنبي لا يؤاخذونهُ اذا خالف عوائدهم . وكانوا قد تركوا لنا كرسيين على جانبي البرنس ظنًّا بانهُ هو غرضنا من هذه الزيارة فجلسنا عليهما لتناول الطعام

وغرفة المائدة رحبة طولها نحو عشرة امتار وعرضها نحو سبعة وجدرانها مغطاة بالصور وكواها تطلُّ على الحرجات المنتشرة امامها والمروج التي بينها . وليس فيها شيءٌ غير عاديّ سوى الكرسي الكبير الذي يجلس عليهِ البرنس بسمرك . ولم يكن معنا على المائدة الاَّ البرنس والبرنسس زوجتهُ وكونتة رنتزو ابنتهُ وسيدتان أُخريان .

ولما دعيتُ لزيارة البرنس بسمرك هذه النوبة اشترطتُ ان اكتب ما اشاء عما اسمعهُ واراهُ فلم اعارَض في ذلك على اني لم آتِ لانقل حديث البرنس ولا انا ناقل كل ما قالهُ وانما كتبتُ ما كتبتُ لان الناس اجمع يحبون الوقوف على آراء هذا الرجل العظيم وعلى وصف حاله . وقد رأيتهُ مرارًا كثيرة منذ سنة ١٨٦٦ ولكنني لم أرهُ قط الاَّ لابساً اللباس العسكري سواءٌ كان في بيتهِ او في مجلس النوَّاب او في مجالس الحكومة او بين الجنود . فقد كان جنديًّا ولم يزل وسيبقى كذلك الى الممات ولا احبَّ اليهِ من الجنديَّة وهذا شأن اكثر رجال بروسيا فان الملكيَّ محتقر في عيونهم ومهما كان منصب الوزير فلا بدَّ لهُ ان يكون جنديًّا لكي يساوي اقرانهُ

وكان البرنس لابساً ثوبًا اسود مزررًا الى عنقهِ لا وسام عليهِ ولا علامة فيهِ وهو عريض الاكتاف طويل القامة كبير الهامة تراهُ يملأُ الغرفة كلها سواءٌ كان جالساً او واقفًا . ولمَّا لاقانا حين دخولنا هشَّ الينا وبشَّ في وجوهنا كما يبشُّ المضياف في وجهِ ضيوفهِ وابدى اسفهُ لان الساعات في فردركسروه لا تنطبق على ساعات سكك الحديد ووقتها المصطنع الذي اصطلح عليهِ تسهيلاً للسفر ثم استدرك فقال "ولكننا نحن اهالي فردركسروه نفضل الوقت الحقيقي" . وهذا شأنهُ في كل اطوار حياتهِ فانهُ اتبع الحقائق دائمًا ولم يعتمد على الظنون ولا طلب تحقيق الاماني

والبرنس بسمرك متعدد لا واحد . فان الرجل الذي يعرفهُ الجمهور ليس بالرجل الذي تراهُ في بيتهِ وبين ضيوفهِ فهو عند الجمهور لين العريكة لطيف المعشر وديع الى الدرجة القصوى حليم سموح ولكنهُ غير مفرّط في مصالح نفسهِ ولا متغاضٍ عن حقوقهِ

ولا غائل عن انهُ زعيم رجال السياسة فلا يبذل آراءهُ بذلاً[1]. ورأسهُ ووجههُ معروفان عند الجمهور بصورهِ الفوتوغرافية الكثيرة ولكنهما غير معروفين حقيقةً . وقد حاولتُ ان اصفهما غير مرة وحسبتُ ان صورتهما راسخة في ذهني ويسهل وصفها ولكني كلما نظرتُ اليهِ أرى معاني جديدة في وجههِ لم أرَها قبلاً . وهو لم يزل كما كان منذ سنين لان الشيخوخة غيرتهُ ولكنها لم تذهب شيئاً من معانيهِ فترى رأسهُ منتصباً بالانفة والشمم كانهُ جبّار عنيد غالبَ الخصوم وغلبهم ولم يعتد الاَّ الظفر . وشكلهُ غير نحيف كأنَّ الطبيعة صوَّرتهُ كما تصوّر جبال الارض وقاراتها

وقد قال المصور لنباخ ان وجه البرنس بسمرك كاملٌ لا يمكن ان يزاد عليهِ شيءٌ ولا ان ينزع منهُ شيءٌ . ولكنهُ ليس كذلك ولو كان كاملاً لكان "كمالهُ نقصاً" كما قال الشاعر تنيسن . وما هو الاَّ وجه انسان غير عادي الاَّ انهُ يشفُّ عن نفسهِ وعيناهُ كبيرتان زرقاوان برّاقتان تظهر فيهما المهابة والسلطة والغضب والجنو والذكاء . واذا احدق بهما الى انسان استجلى ضمائرهُ حالاً وقد اشتهر بهذه الفراسة واليها ينسب نجاحهُ في السياسة. واذا نظرتَ اليهِ حسبتَ انك تتلو تاريخ المانيا مدة الثلاثين سنة الاخيرة

وقد تكلَّم معنا بالانكليزيَّة فقط وهو يحسن التكلُّم بها ولكنهُ غير متأنق في عبارتهِ فيميل الى لغة العامة واصطلاحاتهم حاسباً ان اللغة واسطةٌ لا غايةٌ وينقصهُ التمرُّن على هذه اللغة لانهُ قلما يتكلَّم بها اكثر من مرتين في السنة . واذا اعتاصت عليهِ كلمة تأنى قليلاً فوجدها وكانت في الكلمة الموضوعة لذلك المعنى تماماً . واذا رأيتهُ يفتش في محفوظاتهِ عن الكلمات المناسبة لغرضهِ حسبتَ انك تنظر الى آلة بخارية كبيرة تحرك اجزاؤها حركات محكمة لغاية واحدة . وكانهُ يحسب ان آداب الضيافة تقضي عليهِ بان يتكلم ضيوفهُ بلغاتهم فلم يكلمنا بغير الانكليزيَّة وكذلك زوجتهُ لم تكلمنا الاَّ بها مع انها تفضل التكلم بالفرنسويَّة

وقد شاع عنهُ منذ سنين انهُ امر ان لا يتكلم احد امامهُ باللغة الفرنسويَّة مع انهُ يعرف تلك اللغة كما يعرف لغتهُ الالمانيَّة . ولما سألتهُ عن هذه الاشاعة انكرها بالاحتقار وقال "ليس من شأني ان اسنَّ للغير آداب المعاشرة ولكني قد اعترضتُ مرَّة على استعمال اللغة الفرنسويَّة في مجلس نواب بروسيا وفي الاشغال المتعلقة بالحكومة الالمانيَّة". ولما

(١) المقتطف . ولو عرف المسترسمولي الغربية لمثل بقول شاعرنا الذي قال

هيبة في وداعة وانبساط في وقار ورقة في شهامة

طال مجال الحديث انطلق لسانهُ باللغة الانكليزيَّة ثم اعتاصت عليهِ عبارة ولما لم يعلم كيف يصوغها قال متبسمًا "قد كنت في حين من الاحيان اتكلم اللغة الروسيَّة وما زلت اقرأ بعض الجرائد الروسيَّة احيانًا" والظاهر انهُ تعلم تلك اللغة حينما كان سفيرًا في بطرس برج سنة ١٨٥٩ لكنَّ ذاكرتهُ قويَّة جدًّا فلا ينسى شيئًا مفيدًا تعلمهُ

ولم يَطُل الحديث حتى غاص في بحر السياسة وكان كلامهُ فيها هزليًّا في اول الامر محصورًا بفردريكسبرو فقال " ان فيها اوزًّا وبطًّا وجرذانًا وقد تحالفت هذه الطوائف الثلاث على مواصلة الحرب والجلاد فالاوزُّ يعتدي على البط ويحاول اكلهُ او اكل فراخهِ والجرذان معادية للاوز والبط معًا ويصعب عليَّ ان انشئ دستورًا تسير بموجبهِ ليمتنع اعتداؤها بعضها على بعض وتفلح كلها ويصعب عليَّ ايضًا ان اقنعها بان السلم خير لها من الحرب ولاسيما الجرذان . وقد حاولت انفاذ مشيئتي كما حاولت انفاذها في مهام اخرى فكنت افلح مرةً وافشل اخرى ولكن لا بدَّ لي من ان اجرب كل الوسائل كما جربتها في وزارتي. ولا بدَّ من فصل الاوز عن غيرهِ كما ترى لانهُ الفريق الاكبر . (ودار الكلام بعد ذلك على كثير من المواضيع السياسيَّة مما ليس بسطهُ من موضوع المقتطف)

وقادنا الحديث والحديث ذو شجون الى الكلام على الجرائد وما تكتبهُ عنهُ فقلتُ لهُ ان رينان جرى على قاعدة علمهُ اياها المسيو برتين مدير جريدة الديبا وهي ان لا يتحرَّى نقض اشاعة مهما كانت ولذلك اشاع البعض عنهُ ان روشيلد دفع اليهِ مليون فرنك لتأليف كتاب حياة المسيح فلم ينقض هذه الاشاعة لعلمهِ ان الزمان ينقضها. والف بعضهم كتبًا ونسبوها اليهِ لكي تروج وطبعوها باسمهِ فلم يتبرَّأ منها. فقال " إن هذا الَّا احتقار لرأي الجمهور فان كاتبًا مثل رينان منقطعًا عن الاشتغال بالمهام العموميَّة يستطيع ذلك ولكنَّ الرجل السياسي لا يستطيعهُ لان رأي الجمهور من القوى التي يعتمد عليها فاذا ساء ظن الناس بهِ وجب عليهِ ان يصلحهُ والَّا لم يعُد قادرًا ان ينفعهم بشيء "

ومضى علينا ساعتان وهو يحدِّثنا وينتقل من موضوع الى آخر باسرع من لمح البصر فتبرق اسرتهُ مرةً ويقطب وجههُ اخرى حسب مقامات الكلام واذا انتقد شيئًا رماهُ بعبارة اقطع من الحسام ثم جاء الدكتور كريسندر ونبههُ الى انهُ حان وقت القيلولة بحسب امر الطبيب فاعتذر الينا ونهض ليذهب الى سريرهِ وكأنهُ يطيع امر طبيبهِ كرهًا عنهُ . ومضى بنا الدكتور كريسندر الى الغياض فرأينا فيها من المناظر البديعة ما يعجز عن وصفهِ القلم وهي منتزه البرنس بسمرك وعرائسهُ التي يغالي بحسنها فانهُ

مغرم بالاشجار والغياض كما تقدّم. وذكر لنا الدكتور كريسندر حوادث كثيرة في هذا الشأن ومما ذكرهُ ايضاً انهُ ورد على البرنس بسمرك يوم عيد ميلادهِ تسعة آلاف تهنئة بين تلغرافات ومكاتيب وقد اجاب عليها كلها بيدهِ فاستغرق ذلك نحو اربعة اشهر . ولما عدنا الى دار البرنس رأيناهُ واقفاً في الرواق هو وعائلتهُ وامامهم على بساط الارض الاخضر عدد غفير من تلامذة المدارس وهم يأكلون ويشربون ويغنون ويطربون والبرنس مصغٍ اليهم مسرور بهم ثم وقف واحد من معلميهم وارتجل خطبةً وجيزة وقال فيها مخاطباً التلامذة انظروا يا اولادي ما اجمل هذه المروج والغياض وقد كساها الربيع رداءً بهياً ولكن اعلموا انهُ ان كان لكم وطن تحبونهُ وتبتهجون بهِ بالسلام والامان فذلك من فضل هذا الرجل العظيم الواقف امامكم" قال ذلك مشيراً الى البرنس بسمرك فنادى الاولاد بصوت واحد ليعش البرنس بسمرك وكرروا النداء مراراً . فلم يجبهم البرنس بالكلام الفخيم من اعلى الرواق بل نزل اليهم بنفسهِ ووقف بينهم ووضع يديهِ على رؤوسهم وقال لهم اني اشكركم يا اولادي الاعزاء من صميم الفؤاد واشكر معلمكم ايضاً

وانصرف الاولاد في طريقهم ثم اقبل الدكتور شفينجر من برلين وهو طبيبهُ الخاص وبأتي كثيراً ليراهُ لان البرنس يشكو من مرض عصبي ولعلهُ يجهد نفسهُ الآن بالاشغال العقلية كما كان يجهدها وهو قابض على زمام الاحكام فيبقى هذا المرض مستولياً عليهِ . انتهى بالايجاز

باب الزراعة

التعليم والزراعة

من الاقوال الشائعة كثيراً في مصر والشام بل في البلدان الاوربية والاميركية ان المدارس العالية تضرُّ بالزراعة والصناعة لانها تربي الشبان على كراهيتها وتطلب الوظائف الاميرية والاشغال الكتابية ونحوها مما يبقي الانسان فيهِ نظيف البزة ولا يعاني الاعمال المتعبة الاَّ ان الناقد البصير يعجب من شيوع هذا الحكم مع انهُ لا يرى لهُ اثراً في حال الزراعة والصناعة . فمن حين اخذنا ننظر في احوال البلاد الى الآن ونحن نرى الزراعة والصناعة في تقدُّم مستمر مع ان المدارس العالية غاصة بالطلبة